الأستاذ / عبد السلام صحراوي

مقياس مدخل إلى الأدب المقارن / السنة الثانية / السداسي الأول.دراسات أدبية ولغوية.

تطبيق/ الأفواج: 03- 11- 14.

تعريف الأدب المقارن وتحديد مدلوله

La littérature Comparée

يبدو موضوع الأدب المقارن متنوّعًا ومتداخلًا على الدوام..إنّه يبحث في العلاقات الأدبية بين اثنين أو ثلاثةٍ أو أربعةِ مجالات ثقافية في آداب العالم قاطبة..و دون أدنى شكٍ، هذه هي منطقة نفوذه الطبيعية اليوم.. كما أنّه يبحث أيضًا في تاريخ الأفكار، وفي علم النفس المقارن، وفي علم الاجتماع الأدبي، وفي علم الجمال، وفي الأدب العام..وذلك بحكم توسّع مجالاته ومناهجه ومدارسه..

وعلينا قبل التوسّع في مناهج ومدارس الأدب المقارن، أنْ نحدّد مفهومه ومدلوله منذ نشأته الأولى، وهو المفهوم التقليدي الذي قام عليه الأدب المقارن وتمثّله المدرسة الفرنسية التي أسّست لموضوع الأدب المقارن وإليها يعود الفضل في الدراسات المقارنة الأولى وظهور ما يسمّى بالأدب المقارن اليوم.. La littérature Comparée

ويقوم مدلول الأدب المقارن على دراسة " مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة، وصلاتها الكثيرة المعقّدة، في حاضرها أو في ماضيها، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير أو تأثّر، أيًّا كانت مظاهر ذلك التأثير أو التأثّر؛ سواء تعلّقت بالأصول الفنية العامة للأجناس الأدبية والمذاهب الأدبية أو التيارات الفكرية ،أو اتصلتْ بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تُعالج أو تُحاكى في الأدب ،أو كانت تمسّ مسائل الصياغة الفنية والأفكار الجزئية في العمل الأدبي ،أو كانت خاصة بصور البلاد المختلفة كما تنعكس في آداب الأمم الأخرى،بوصفها صلات فنية تربط ما بين الشعوب والدول بروابط إنسانية تختلف باختلاف الصور والكتاب ،ثمّ ما يمتُّ إلى ذلك بصلة من عوامل التأثير والتأثّر في أدب الرحالة من الكتاب." (م.غ.هلال- الأدب المقارن).

إنّ الحدود الفاصلة بين الآداب هي اللغات، فالكاتب أو الشاعر الذي يكتب باللغة العربية، يعتبر أدبُه عربيًا مهما كان جنسه البشري الذي انحدر منه..فلغات الآداب واختلافها هو ما يعتدّ به في مجال الأدب المقارن وفي دراسة التأثير والتأثّر..(خاصة من وجهة نظر المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن).

و بناء على التعريف السابق للأدب المقارن، فإنّنا نلاحظ أنّ تسمية الأدب المقارن نفسها قد تعرّضت لبعض الإضمار والاختلاف؛ إذْ يذهب أحدُ الباحثين إلى القول بأنَّ الأولى أنْ يسمّى "التاريخ المقارَن للآداب " أو"التاريخ المقارَن للآداب". ولكنّه اشتهر باسم الأدب المقارن، وهي تسمية ناقصة في مدلولها ،ولكنَّ إيجازها سهّل تناوُلها فغلبت على كلِّ تسمية أخرى.. (محمد. غ.هلال- الأدب المقارن.ص10).

والأدب المقارن لا يناقض في قيمته و أهميته قيمة وأهمية الآداب القومية، فهو يقوم على تلك الآداب، ويكشف على مصادر التيارات الفنية والفكرية للأدب القومي. وكلُّ أدبٍ قومي يلتقي حتمًا في عصور نهضته بالآداب العالمية ويتعاون معها في توجيه الوعي الإنساني أو القومي...و لكنَّ مناهج الأدب المقارن ومجالات بحثه مستقلّة عن مناهج تاريخ الأدب والنقد، لأنّه يستلزم ثقافة خاصة يستطيع بها الباحث التعمق في مواطن تلاقي العالمية وكذلك التعمق في دراسة الصلات الأدبية العالمية في ذاتها..

ولا تقف دراسة الأدب المقارن عند حدود التيارات الفكرية والأجناس الأدبية والقضايا الإنسانية في الفن،بل إنّ الأدب المقارن يكشف أيضًا عن جوانب تأثّر الكاتب في الأدب القومي بالآداب العالمية ،وما أكثر ما يحدث هذا التأثّر والتأثير والتبادل لدى الكتاب والأدباء في كلّ بلد وعلى اختلاف العصور..وا هو تقريبًا ما أشار إليه الناقد الفرنسي " آبيل فيلمان Abel Villemain" في إحدى محاضراته في جامعة السربون عام 1828 وقد أسماه "السرقات الأدبية الأبدية التي تتبادلها كلّ الدول" . غير أنّ الأدب المقارن أرحب أُفُقًا وأعمَقُ نظرًا وأصدق نتائج في دراسته للصلات الأدبية الدولية ممّا كانوا يسمّونه بالسرقات الأدبية.. وقد كان الباحث الفرنسي " جون جاك أمبير J.J. Ampère من أوائل من نبّهوا إلى الأهمية التاريخية لدراسة الأدب المقارن ، وهو القائل في محاضرته في جامعة السربون عام 1832م :" سنقوم أيّها السادة ، بتلك الدراسات المقارنة التي بدونها لا يكتمل تاريخ الأدب.."

وفي هذا السياق، وتبعًا لما قدّمناه من تعريف للأدب المقارن، لا بد من التمييز بين ما هو موازنات وما هو مقارنات ؛ فلا يعدّ من الأدب المقارن في شيء (حسب المدرسة الفرنسية) ما يعقد من موازنات بين كتّاب من آداب مختلفة لم تتم بينهم صلاتٌ تاريخية حتى يؤثّر أحدُهم في الآخر نوعا من التأثير ، أو يتأثّر به. ومن ذلك مثلًا ما يُعقدُ من موازنةٍبين الشاعر الإنكليزي " جون ميلتون J. Miltoon (1608 - 1674 م) صاحب " الفردوس المفقود – وقد أصيب في فترة لاحقة من حياته بالعمى – وبين أبي العلاء المعرّي (973 – 1057 م) الشاعر العربي الكبير وصاحب رسالة الغفران...لأنّ كليهما كان أعمى ، وكتب خاضعًا لهذه العاهة.ثمّ على الأخص لأنّ لكلٍّ منهما آراء متطرّفة في ما يخصّ الدين..و قد قامت الموازنات بينهما على هذا الأساس ، مع أنّ كلّا منهما لم يعرفْ الآخر و لم يتأثّر به ، فتشابه آرائهما وظروفهما الاجتماعية ليست له قيمة تاريخية و لم يثبت صلة تاريخية بين أدبيهما أو بينهما ، ولذلك فالموازنة بينهما لا تدخل في مجال الأدب المقارن ...

وكما أخرجنا من حساب الأدب المقارن ما يعقد من مقارنات (موازنات) بين آداب ليست بينها صلة تاريخية ، كذلك لا بد من أنْ ننبّه إلى أنّه ليس من الأدب المقارن ، ما يساق من موازنات في داخل الأدب القومي الواحد؛ سواء أكانت هناك

صلاتٌ تاريخية بين النصوص المقارنة أم لا.. وكمثالٍ على ، الموازنة بين أبي تمّام والبحتري ، أو بين حافظ إبراهيم وأحمد شوقي في الأدب العربي. وكذلك الموازنة بين " كورناي Corneille و راسين Racine " ، وبين " راسين و فولتير Voltaire في الأدب الفرنسي. إنّ مثل هذه المقارنات، على أهميّتها ، لا تتعدّى نطاق الأدب القومي الواحد ، في حين أنّ ميدان الأدب المقارن دولي ، يربط أدبين مختلفين – أو أكثر – بينها صلة تاريخية ثابتة .. فالموازنات داخل الأدب القومي الواحد غالبًا ما تسير على وتيرة واحدة ، وفي حدود ضيقة ، كدراسة الحريري وتأثّره ببديع الزمان الهمداني ، أو دراسة الشعراء اللاحقين ومدى تقليدهم للشعراء الجاهليين في الأدب العربي..ولكن السؤال الذي يطرح في هذا السياق هو: أين هذا من دراسة نوع المقامات ونشأتها في الأدب العربي وتطورها فيه ، ثمّ انتقالها إلى الأدب الفارسي ...أو دراسة موضوع كموضوع ط مجنون ليلى " في الأدب العربي، وكيف تطور في الأدب الفارسي وابتعد فيه عن الحب العذري واتجه إلى ميدان التصوف والرمزية ...أو دراسة تأثير الأدب اليوناني القديم واللاتيني في أدب كتّاب عصر النهضة وشعرائهم بناء على نظرية محاكاة الأقدمين...إلخ. مثل هذه الدراسات تعدّ من صميم الأدب المقارن، في حين تعدّ الموازنات التي أشرنا إليها من نطاق الأدب القومي البحت. و تدلّنا الأمثلة السابقة عل اختلاف الدراسات الأدبية المقارنة عن الموازنات بصفة عامة.